الآليات العلميةوالمنهجية لتلقي نص الأدب المملوكي وتـأويله

-دراسة أحمد فوزي الهيب لشعر ابن الوردي نموذجا -

Scientific and methodological mechanisms for receiving and interpreting the text of Mamluk literature - Ahmed Fawzi Al-Hib's study of Ibn al-Wardi's poetry as a model-

أسامة محمدي*
جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر
oussama.mohammedi@univ-alger2.dz

أنفال عياطي
جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر
anfel.ayati@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2021/11/28	تاريخ القبول: 221/12/18

الملخص:

إن الغاية المتوخاة من هذه الدراسة هي التنقيب -من خلال بحوث الأستاذ أحمد فوزي الهيب- عن المسالك العلمية والمنهجية التي انتهجها قصد إنصاف أدب العصر المملوكي بإظهار مواضع الإبداع فيه ومواطن الاقتدار والبراعة بالنسبة لشعراء هذا العصر و أدبائه، وكذا الوقوف على أسباب الضعف الأدبي التي أخفت كوامن القوة والابتكار، وبهذا يتحمل دارسنا مهمة النأى بالباحثين عن الانطلاق في الدراسات والبحوث من الأحكام القيمية التي ألصقت بالعصر المملوكي، موجها إياهم إلى استجواب واستنطاق النص نفسه وتحليله قبل أي حكم عليه.ويتلخص دور هذه الدراسة في القراءة التحليلية التطبيقية لبعض النماذج الشعرية من ديوان ابن الوردي التي تناولها الأستاذ الهيب لمحاولة استنتاج وتنظيم تلك الآليات العلمية والمنهجية بغية نمذجة المنهج التطبيقي والإجرائي الذي اعتمده في دراسة وتحليل ونقد أدبيات تلك المرحلة.

الكلمات المفتاحية: الآليات العلمية، الآليات المنهجية، النص الأدبي، النص الشعري، العصر المملوكي، أحمد فوزي الهيب

* المؤلف المرسل: أسامة محمدي.

Abstract:
The aim of our study is to explore - through the research of Professor Ahmed Fawzi Al-Haib - about the scientific and methodological paths that he employed in order to do justice to the literature of the Mamluk era and to show the ingenuity of the poets of this era, and to identify the reasons for the hidden literary weaknesses of the elements of innovation. Tribalism, directing them to interrogate and analyze the text before any ruling. This study is summarized in the analytical and applied reading of some of the poems from the Diwan of Ibn al-Wardi that our researcher dealt with in an attempt to deduce and organize those scientific and methodological mechanisms in order to model the applied approach adopted in the study, analysis and criticism of the literature of that stage.

key words: Scientific mechanisms, methodological mechanisms, literary text, poetic text, Mamluk era, Ahmed Fawzi al-Hip

مقدمة:

إن المتتبع والقارئ لتركة الأستاذ أحمد فوزي الهيب العلمية يجد أن كثيرا من هذا الإنتاج يدور حول أدب العصر المملوكي تأريخا ونقدا، وتحليلا ودراسة سواء كانت دراساتٍ مستقلةً بتأليف، أو تحقيقات علمية لأدب هذا العصر، ولعل تحقيق ودراسة ديوانين من الدواوين المهمة لأدب تلك المرحلة وهما: "ديوان ابن الوردي"، وديوان "صفي الدين الحلي" كان عاملا للباحث أحمد فوزي الهيب لفقه أدب هذا العصر، واستكناه وسائله الفنية، والإبداعية.

وستكون هذه الدراسة العلمية معينا للاطلاع على أدب تلك المرحلة، بعدما حمل على عاتقه مهمة إعادة قراءة نصوص الديوانين قراءة تستأنس بآليات علمية ومنهجية انتقاها أستاذنا بموضوعية لفهم أدب المرحلة. وهي أدوات اشتغال تم استخلاصها واستنتاجها من بعض إنتاجه العلمي الذي خلّفه

الأستاذ أحمد فوزي الهيب -رحمه الله -، وعليه فتتلخص هذه الدراسة في إشكالية رئيسية يتفرع عنها سؤال فرعي كالآتي:

إشكالية الدراسة: ما هي الآليات العلمية والمنهجية المضمنة في أدبيات الأستاذ أحمد فوزي الهيب والتي تمكن دارس أدب العصر المملوكي من تلقي نصوصه وتأويلها واستبطان عناصر القوة منها؟

السؤال الفرعي: ماهي أبرز الأسباب التي أدت بالأدباء إلى العجز عن الابتكار في عصر المماليك، مما أتاح لكثير من الدارسين إطلاق أحكامهم القيمية دون مساءلة النص الأدبي أو تحليله؟

1. أدب العصر المملوكي بين أحكام مجحفة، ودراسات منصفة:

انعكست الأزمات السياسية والاجتماعية على الأدب منذ الحملة الدامية التي شنّها المغول على البلاد العربية أثناء زحفهم الجرّار، وكان من نتائج ذلك أن خبا نجم العاصمة بغداد فسقطت سنة (656هـ= 1258م) في يد المغول، ومن حينها بدأ التأريخ لعصور وصفت بالاجترار والانحطاط والضعف والتلاشي، سواء على المستوى السياسي والاجتماعي، أو الأدبي والفني. والقارئ لأدب هذا العصر يجد الأدباء قد سلكوا مسالك متعددة أخرجت الأدب عن سكته الحضارية والزهو المعهود عنه لفظا ومعنى منذ العصر الجاهلي، غير أن هذا العصر وإن انطوى على عناصر الضعف والضمور، فإنه-وفي الآن ذاته-كان قبلة الحسن والحبور في مجالات علمية، وإبداعية، وفنية أخرى سنأتي على ذكرها وتفصيلها.

اصطبغ الأدب في عمومه بصبغة التقليد والاهتمام المفرط باستخدام المحسنات البديعية، فظهر اتجاه سُمّي بالاتجاه البديعي الذي لا يترك رواده بيتا من الشعر، ولا سطرا من النثر إلا أسدلوا عليه ستائر البديع الجمالية والفنية، وهناك آخرون وقفوا على أعتاب الشكل والبناء فراحوا يتصنّعون أبياتا من الشعر رقطاء[1]، وعني بعض هؤلاء الشكليين بتصنع أبيات تقرأ من اليمين إلى

الشمال، ومن الشمال إلى اليمين، وقصائد المربع، ونموذج التشجير، والنموذج الهندسي في الشعر،[2] حيث يصنف من كانت هذه صنعته في الاتجاه اللغوي، <<ومن البديهي أن يكون لحركة التصنّع هذه منذ بداياتها خصوم قادوا ضدها معركة حامية الوطيس، ولقد كان من أهمهم الآمدي الذي أدرك أن الشعر العربي عند متلقيه من العرب، كانت له مقومات تختلف عن المقومات التي حفل بها أنصار حركة البديع، فمقوماتها عند السابقين صفاء الفطرة في التعبير، وقرب المأخذ في التصوير...ولكن أنصارها نظروا بمنظار الحياة الجديدة التي استغرقتهم ألوانها الكثيرة، وزخرفها، واشتباك تيارات الثقافة فيها، وتنوع معارفها>>[3] فكان من نتائج ذلك أن بَعُدَ الشعر في ألفاظه ومعانيه عن سُنّة الأقدمين في النظم، ومال إلى التحبير والتشكيل، والتفلسف، والتجريد، والتعقيد.

تلك نظرة المجحفين في حقّ أكبر عصر أدبي زمنيا. هذا العصر الذي <<شابَهُ كثير من الغموض لقلّة الدراسات المنهجية التي أجريت عن الأدب المملوكي، ولأن الفكرة العامة التي غلبت على الباحثين في العصور الأدبية عن هذا العصر كانت تَصِمُهُ بالتخلف والضعف، وكلا الأمرين؛ أي **قلّة الدرس والإهمال، وجور الأحكام أو عدم انطباقها تماما على الواقع** جعلت المثقفين وطلاب الأدب ينطبعون على أحكام ناقصة وتصورات غير واضحة عن هذا العصر وأدبه>>[4]، أما النظرة العلمية الاستقرائية والتحليلية التي تتمخض إثرها الأحكام المضبوطة والموضوعية، فدراسة باحثنا أحمد فوزي الهيب هي دراسة ذات **محددات علمية وأخرى منهجية** تسعى إلى تجنب الأحكام الموقوفة على الانطباع والانفعال.

ودورنا ـ بحسبنا طلبة تتلمذنا على يدي الأستاذ أحمد فوزي الهيب ونهلنا من علمه ـ يكمن في الاستعانة برؤيته لكي نتلمس آلياته العلمية والمنهجية، التي تعاطاها في فحص نصوص هذا العصر، واستكناه خصائصها ومميزاتها.

2. منهج الأستاذ أحمد فوزي الهيب في دراسة الكتابة الفنية في العصر المملوكي: أشيع عن العصر المملوكي-كما سلف الذكر- الجمود الفكري والعجز عن التجديد والابتكار، وظلت هذه الأحكام القيمية–لعصور من الزمن- متواترة يتناقلها الجيل عن الجيل دون تمحيص ونظر في النصوص نفسها وما تحمله من قيمة تثبّت تلك الأحكام أو تفنّدها، لذا انطلق الأستاذ أحمد فوزي الهيب في دراسته من آليات علمية تقلّب في النصوص، فلتلك النصوص ما تقوله بذاتها قبل أن يحكم غيرها عليها، وقد أشار من خلال كتاب "الأدب وروح العصر" إلى أن النصّ يحمل اعتبارا معنويا في ذاته فيقول: <<ما أردناه من كتابنا هذا "الأدب وروح العصر" هو أن للنصّ حقًّا في أن يقول كلمته قبل أن يقول الآخرون كلمتهم فيه، فالذي حدث هو أنّ النصّ العربي في العديد من الدراسات قد حُوصر بالعديد من المفاهيم المسبقة>>[5]

تميزت دراسة باحثنا بالكلّية التي تعتبر من مسالك العلماء في البحث، فاستيعابه لجملة واسعة من النماذج المستقرأة يجعل أحكامه أرسى في الموضوعية وأثبت في الدّقة، فالنزوع نحو استقراء ظاهرة أو شمول إنتاج أديب يُسمّى في الدراسات اللّسانية الحديثة بـ" لسانيات المدونة" ، أما منهجه في التحليل فهو منهج لغوي استقرائي نقدي[6] بامتياز، فحكم النقد عند العرب مطبوع بالسمة اللغوية، فهناك رباط وثيق بين نشاط اللغويين و النقديين، و هذا أصل في درسنا، و<<النقد فن من فنون الأدب يتناول الآثار الأدبية ويُحلّلها، ثم يقوّمها ويحكم عليها بالقبح أو بالجودة، والنقد بمعناه العام هو كل أدب كتب عن الأدب سواء أكان تحليلا أو تفسيرا أو تقويما>>[7]، والجوانب التطبيقية من هذه الدراسة ستقف على عناصر التحليل والتفسير والتقويم من خلال بعض نماذج أدب عصر المماليك التي تعاطاها الأستاذ أحمد فوزي الهيب بالدراسة.

ويمكننا بعداستقراء ومدارسة لما نراه منتوجا يصّب ضمن حقل اهتماماتنا وجدنا أنفسنا أمام مقاربة منهجية تتلخص في خمسة أسس علمية نتجت عنها أحكامه التي أطلقها على نصوص أدب العصر المملوكي، وهي على النحو التالي:

1. **الاستقراء وتتبع الجزئيات وجمعها.**
2. **تصنيف الأشباه و النظائر.**
3. **استنباط وتحليل العناصر المشتركة والمكوّنة للظاهرة اللغوية الواحدة من خلال جملة النماذج.**
4. **إصدار الحكم المستند إلى الأسس العملية السابقة.**
5. **تقويم الأحكام غير المعللة، وتوجيهها إلى المسالك العلمية و الموضوعية.**

إن الدراسة التطبيقية والتحليلية للنماذج الشعرية والأدبية التي تناولها الأستاذ أحمد فوزي الهيب بالدرس والتحليل، وأطلق إثرها أحكامه كفيلة بإثبات الاستنتاج المنهجي الذي توصلنا إليه.

3. قراءة بعض النماذج الشعرية من منظور أحمد فوزي الهيب: بــراعة أم صناعــة؟

من خلال اطلاعنا على نتاج الأستاذ أحمد فوزي الهيب العلمي حول هذا العصر وجدناه أولى عناية فائقة به، حيث بذل الجهد، واستفرغ الوسع، ليدفع دعاية الأحكام العامة التي أنيطت بأدب هذا العصر ، وألصقت به، على غرار ضعف المضامين وبساطة أفكارها، وجمود القرائح وعقمها، كما لم ينف ذلك عن كثير من أبناء هذا العصر، لكنه **أراد ألا تكون مواطن التصنّع والضعف ماحية لعناصر الصنعة والإبداع عائدة عليها بالإبطال والنقض**، نظرا لما حواه هذا العصر من التأليف والجمع والنظم والشروحات التي أثرت المكتبة العربية والإسلامية بالفوائد البديعة والبدائع النفيسة.

نحا شعراء العصر المملوكي نحو النزعة الجمالية في الأدب <<وذلك لأن العصر المملوكي كان من عصور البديع، أوصار البديع الهواء الذي يتنفسه شعراؤه وأدباؤه و نقاده على حدّ سواء بعامة، ولم يعد يستحسن الشعر أو النثر إلا بقدر ما فيه من فنون بديعية، ولأنّ الشاعر والأديب إنّما يتوجهان بالشعر والنثر إلى أبناء عصرهما قبل أيّة فئة أخرى لينالا إعجابهم بعد أن يرضياهم، فتسمو منزلتهما ويشار إليهما بالبنان.>>[8]. ولقد تمعن دارسنا في الجوانب البديعية في ديوان ابن الوردي الشاعر المملوكي المعروف وخلُص إلى أن هذا الشاعر وإن نحا نظريا عكس تيار عصره الجانح نحو حسن السّبك والوقوف على عتبات الألفاظ الأنيقة[9]، فإنه ما انفكّ يصطبغ شعره بصبغة شعراء عصره من خلال قصائد ديوانه التي رصّعها بالمنمنمات البديعية على تعدّد أنواعها وتشعّب مسالكها لفظيا ومعنويا، كما رتّب الباحث هذه المحسّنات في دراسته التحليلية ابتداء بالمحسن الأكثر ورودا في ديوان ابن الوردي إلى المحسن الأدنى منه، ومراده من توضيح هذه التراتبية هو إبراز النزعة الجمالية والفنية في شعر ابن الوردي سواء كانت النماذج إبداعية أو متصنعة.

أما المحسن المتصدر في سلم الترتيب من خلال ديوان ابن الوردي فهو الجناس اللفظي ويرمز له باللون الأزرق، ويقول في أسبقيته الأستاذ أحمد فوزي الهيب: <<جعل الجناس خاصة ينال قصب السبق على غيره من

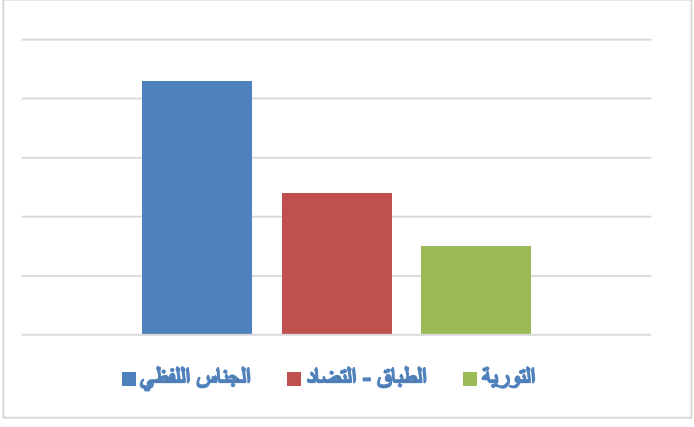

المخطط رقم(1): نسب المحسنات البديعية الأكثر توظيفا في ديوان ابن الوردي

المحسنات، ويكون أكثر الفنون البديعية بنوعيها عددا>>[10]،ومن غير المبالغة أن يصنف التجنيس بأنه أكثر المحسنات توظيفا على الإطلاق في هذا العصر المملوكي[11]، كما جاء الطباق أو التضاد والمقابلة في مرتبة الوصيف من حيث عدد حضوره في ديوان ابن الوردي ونمثله باللون الأحمر، أما التورية فحلت في المرتبة الثالثة[12]ومثّل الأستاذ لذلك أمثلة قلبها تقليبا، وخلص إلى موطن استخدام الطباق المحض بنوعيه في البيت، ثم مواضع المزج بين المحسّنات في البيت الواحد -الطباق مع التورية- كقول ابن الوردي في فتح العزيز الأيوبي لمدينة شيزر:

وظنوا بالعزيز العجز عنها فجاء إليه عاصيها مطيعا[13]

طابق الشاعر فيصدر البيت بين معنى العزة التي تقتضي المقدرة، وبين معنى العجز المقتضي لعدم القدرة، واستعمل التطبيق في عجز البيت بين معني الطاعة والعصيان، أما المعنى الخفي الذي وُرِّيَ عنه بلفظ قريب هو لفظ (العزيز) الذي يُفهم منه العزة والمقدرة وهو محتمل طبعا، لكن المقصود الذي أراده الشاعر هو العزيز الأيوبي وهو الذي خصّه بالمدح في كامل البيت، لتتضح التورية المجتمعة مع الطباق، كما جمع كذلك الأبيات التي تحتوي على الطباق ممزوجا بالاقتباس تارة، وبالجناس تارة أخرى مما لا يسعنا ذكره بمجمله.

وينفذ الأستاذ بعلميته اللغوية التحليلية إلى جنس الوحدات الكلامية الموظفة في هذا البناء الفني فيقول: <<وإذا نظرنا ثانية في الأمثلة الآنفة الذكر وجدنا الشاعر قد نوّعها فجعلها بين اسمين تارة، وبين فعلين تارة ثانية، كما نجد عنده أيضا الطباق بين اسم وفعل... ونجد لديه أيضا المقابلة التي أتى بها مفردة حينا...و التي مزجها أحيانا بغيرها من الفنون البديعية كما فعل في الطباق من قبل>>[14]

إن القارئ المتفحص الذي ينظر إلى القضايا اللغوية بعمق ليدرك حتما الرؤية التحليلية والتفكيكية التي تمتع بها الأستاذ أحمد فوزي الهيب، فلكأنه يؤرخ

لمرحلة أدبية بتحليل لغوي يصاحبه تنظيم وتفيئة وتصنيف لعناصر ومكونات الظاهرة اللغوية في النص الأدبي.

ومن جهة موازية لم يغفل الأستاذ أحمد فوزي الهيب عن جوانب الجمود في هذا العصر حسب دراسته لديوان ابن الوردي الموسومة بـ "الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "والتي استعان فيها بالمنهج الاستقرائي، حيث أتى من خلالها على جل الموضوعات المألوفة التي تناولها ابن الوردي على وجه الخصوص، وأدباء عصره على وجه العموم، والجدول الآتي يوضح ذلك

المحسنات البديعية / الموضوعات	الجناس	الطباق والمقابلة	التورية	الاقتباس	محسنات ممزوجة	التضمين	حسن التعليل
وصف عذراء بتوظيف المقصور والممدود		X					
تبديل الخوف أمنا				X			
القلب بين الشكر والشكوى	X						
التغزل بحاجب البواب	X		X				
الاستئثار بحب الحبيب	X						
تلوث ثوب بحبر كاتب	X						

استعذاب ريق أعرابية	X						
التغزل بشعب ترك الخَطَا							
وصف مجلس أنس		X					
وصف شمعة		X					
التغزل بالليل والصبح		X					
تفضيل الآخرة على الدنيا		X					
وصف عمل الخياط		X					
ترك وطرح الدنيا		X					
وصف عود مورق						X	
وصال العدو وقطع المحب		X					
المحبة على الصغر والعداوة على الكبر		X					
وصف صاحب يسمى سراجا			X				
وصف أدوات الطبخ (الصدر: إناء)			X				
السخرية من سلطان لم يبلغ			X				
تصنع أسماء البلدان			X				
تصنع أسماء الأنهار			X				
تصنع أسماء النجوم للتغزل			X				
تصنع أسماء الأزمنة والأيام			X				
تصنع أسماء الأشخاص			X				
تصنع أسماء القبائل			X				
تصنع أعضاء الجسم			X				
تصنع أسماء المذاهب الفقهية			X				

أسماء السور القرآنية			X				
تصنع أسماء الحروف			X				
تصنع مصطلحات العلوم والفنون خاصة علم النحو			X				
عتاب القاضي كمال الدين			X				
تبجيل المال على الفضائل						X	
وصف نسوة بالظباء						X	
مدح الرسول ρ						X	
الإعراض عن الجاهلين				X			
في النصح والعزاء				X			
التغزل بالمرأة التي أوتيت من كل شيء				X	X		
في مدح من يعبد الله على حرف			X	X			
تراقص النياق فرحا							X
نزول المطر أو بكاء السماء							X
نجار يقيم الحد على أغصان الشجر							X
سيول أصابت بعلبك			X				X
آخر العلاج الكي						X	
إهداء التمر إلى هجر						X	
توديع الحبيبة		X					

جدول رقم(1): موضوعات الشعر عند ابن الوردي والمحسنات البديعية المودعة فيها

إن المدقق في الجدول (1) يستنتج إذا ما قارن مع المخطط (1) أن هناك تناقضا حاصلا؛ إذ إن الجدول يشير إلى أكثرية التورية والطباق مقارنة بالجناس الذي حكمنا في المخطط أنه أكثر المحسنات توظيفا عند ابن الوردي، غير أن الأدق منه هو أن الحكم الذي أطلقه الأستاذ أحمد فوزي الهيب إنما كان عن استقراء كلي شامل لديوان ابن الوردي، أما ما تم صبّه في الجدول فهي نماذج نثبت من خلالها سطحية الموضوعات المتناولة فقط، وما أدرج فيها من محسنات بديعية، فالحاصل أن الاعتراض لا يلزم الدراسة لكونها ممثلة لجوانب الضعف لا معممة لجميع ما ورد في الديوان

1-3 مكانة الجناس في الأدب المملوكي بين الصناعة والتصنع-قراءة وتحليل أحمد فوزي الهيب: بالعودة إلى الجناس خصوصا، فلم يكن ابن الوردي من أنصاره نظريا، حيث كان يدعو إلى الاسترسال العفوي في النظم، ودعا لأن يكون الشعر سهلا ممتنعا، ونستشف ذلك من خلال قوله:

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتناع

ولا تكثر مجانسةً وممكِّن قوافيه وكِلْهُ إلى الطباع[15]

غير أنه من جانب التطبيق العملي حظي التجنيس عنده بأوفى حيز وأوسع نصيب-كما سلف ذكره-مقارنة بالمحسنات البديعية الأخرى، حيث نجده يحشده حشدا، ويستدعيه استدعاء في قوله:

ودارهم في دارهم وحيهم في حيهم وأرضهم في أرضهم[16]

ولا عجب أن ينجرف الشعراء وأصحاب القلم في سيل هذا الفن، فقد امتدحه الأدباء والشعراء والمؤلفون والنقاد، واستعذبته الأسماع من جمهور المتلقين، وتوكأ عليه الوعاظ والخطباء جاعلين منه جسر التسلل إلى القلوب، وأداة لترشيد النفوس، وهذا نص بديع للصفدي يقول فيه: <<فلما كان فن البديع في

الزمن المتأخر أحسن بدعة، وأوضح لمعة، وأملح طلعة، وأكثر رواية وسعة، ولا أقول رياء وسمعة. به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعه، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعه، وإذا كان الشعر بحرا فهو منه أعذب جرعة، والمكاتبات حلة مرموقة فهو طراز كل رقعة، خصوصا نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته، وبيان شرعته، وديباجة صنائعه في صنعته، وآية سجدته، وغاية سجعته، وغياث نجدته وغيث نجعته. تشهد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته، وتعترف الشعراء برفع محله، ومحل رفعته...إن دخل في خطبة توجها، أو قصيدة دبجها، أو شبهة روجها...فهو في البديع خال خده، وطراز برده، وفص خاتمه، وجود حاتمه>>[17]، ولما نال الجناس هذه المكانة الرفيعة في العصر المملوكي تناوله الأدباء مفردا بالتأليف، فجمعوا فيه وأوفوا، وما ابن الوردي إلا واحد من هؤلاء الذين أبدعوا في حشد وجمع أصناف الجناس وأنواعه مسترسلا كان أو متكلفا، وهذا نموذج للجناس من ديوان ابن الوردي وظفه الأستاذ أحمد فوزي الهيب في دراسته نحلله لنستدل به على تصور الأستاذ لمسالك تلقي أدب العصر المملوكي وفهمه، وضرورة توفر آليات علمية ومنهجية وثقافية لدراسة وتحليل أدب هذا العصر .

يقول ابن الوردي مجنسا:

أيا حاجبَ السلطانِ زانَ كَحاجبٌ وأغناكَ في الهيجاءِ عَنْ قوسِ حاجبِ[18]

أخبر الشاعر هذا الحاجب بأنّ له فوق عينيه حاجبا جميلا، وهو أشدّ فتكا في المحبين، وأسد رميا في قلوب العاشقين من قوس حاجب بن زرارة[19]التي يضرب بها المثل في الوفاء.[20]

نلاحظ أن هذا البيت جمع فيه ابن الوردي مدحا وتغزلا (الغرض) مودعين بجناس تام (البديع) بين حاجب السلطان؛ وهو البواب، وحاجب العين (اللغة)؛وهو قوس عظمي بشعره ولحمه يعلو العين[21]، وبين التورية (البديع) بقوس حاجب بن زرارة الذي رهنه عند كسرى(حادثة تاريخية)، وربط أجزاء

هذا المعنى العميق ينم عن حمولة ثقافية واسعة عند ابن الوردي بما لا يتأتى مراده ومقصوده لدى المتلقي بسبب عسر استيفاء هذه المعارف التاريخية، واستكناه التورية المغطاة بالجناس التام، ومعرفة الدلالات اللغوية القاموسية (بين الحاجب والحاجب) وربط هذه المتغيرات بحزمة معرفية واحدة وقد توفرت كل هذه المعطيات والآليات عند الأستاذ أحمد فوزي الهيب مما مكنه من تحليل هذا النموذج وغيره.

ويمكننا أن نلخص المسلك العلمي وكذا المنهجي المستنبط من فكر الأستاذ أحمد فوزي الهيب التحليلي لتلقي نصوص هذا العصر وتأويلها في المخطط الآتي:

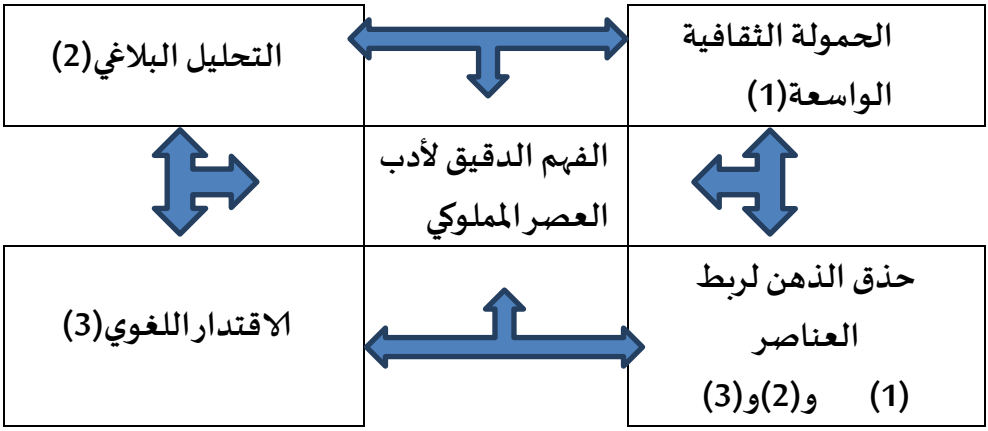

مخطط رقم (2): المسالك العلمية والمنهجية لفهم نصوص الأدب المملوكي

ومما سبق نرى أن ابن الوردي من أرباب الجناس في عصره على الرغم من رأيه النظري الذي رأيناه من قبل، والذي دعا فيه إلى عدم الإكثار من الجناس، وأنه في كثير من الأحيان قد أفاد من معطياته النغمية، فأتى رشيقا جميلا خفيف الظل، أغنى موسيقى شعره عامة، وفضلا عن ذلك؛ دل على سعة قاموسه

اللغوي وقدرته الفنية، ولكنه مع هذا قد ترك آثاره السلبية في معانيه>>[22]فما القيمة الجمالية من نظم يفقد فيه المتلقي معناه؟

وقد توسع الأستاذ أحمد فوزي الهيب في دراسة الكتابة الفنية عند ابن الوردي توسعا مستفيضا أتى فيه على المحسنات المشتركة والنماذج الموضحة لها في ديوان ابن الوردي، ووقف كذلك على المحسنات المبتكرة، (ولا غرو في ذلك؛ لأن عصر الشاعر هو عصر الابتكار والتجديد والتصنع في ميدان المعاني والصور والبديع)[23]، كما تعرض الأستاذ في دراسته لنماذج الحشد الذي اكتملت فيها صور الغلو البديعي عند الشاعر، مما لا يسع المقام لسرد أجزائه وبسط عناصره، غير أن دهاء الشاعر جعله يختار الغرض المحبب للنفوس ليعرض فيه تلك اللوحات المنمقة بالبديع، ألا وهو التغزل، وخاصة لما غابت مشاعر الصدق والبرود العاطفي الذي كان سائدا حينها. يقول الأستاذ معلقا: <<ولا أريد بهذا أن أنفي وجود التغزل القائم على تجربة حقيقية، ويصف واقعا ملموسا في عصر الشاعر، وإنما أريد أن أنفي تعميم ذلك على جميع رجالات العصر المملوكي>>[24]فهو المنفذ الذي استقام به البديع عند الشاعر

4. أسباب نزوع أدباء العصر المملوكي نحو التصنع من خلال دراسة أحمد فوزي الهيب لديوان ابن الوردي[25]

:بعد قراءة متمعنة وفاحصة لمقال الأستاذ أحمد فوزي الهيب الموسوم بـ"الجانب البديعي في شعر ابن الوردي" توصلنا لإجمال مجموع الأسباب وراء نزوع شعراء العصر المملوكي نحو الإغراق في استخدام البديع والتصنع اللفظي عموما،وهو ما طبع العصر بطابع التصنع وجعل أغلب الدراسات في غفلة عن العناصر المشرقة فيه وهو الجانب الذي أراد دارسنا إبرازه وإظهاره؛ لأن عناصر القوة والابتكار في أحيان كثيرة تغرق وسط هذه الأسباب:

1- التأثر البليغ بمقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري وجعلهما المستند الأساس لتكوين الشاعر والناظم والسبيل إلى ذلك بحفظ محتواهما ونسيانه.

2- المنافسة الأدبية التي تميز بها أبناء هذا العصر الذين جمعوا الأدب والدواوين، وارتقوا ببعض شعرائهم إلى مصاف شعراء العصور الزاهية، وأحيانا يفضلون شعراءهم عليهم.

3- الاهتمام بالشكل وتعظيم بنائه وصنعته البديعية، ولهم في ذلك سند وسلف هو قول الجاحظ: <<والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير>>[26]، وعلى الرغم من تترس هؤلاء الأدباء بذريعة أهمية النقش على الألفاظ، فإنهم <<لم يستسلموا في ميدان المعاني، وإنما حاولوا جاهدين أن يصلوا إلى المعاني المبتكرة التي لم يسبقوا إليها، وعدوا وصول أحدهم إلى واحد منها فتحا مبينا لندرته وصعوبته؛ لأن السلف في رأيهم لم يترك للخلف شيئا.>>[27]؛ والمعاني ههنا هي التي لم يكن لأحد عهد بها من قبل، ويسند ميلادها لهذا العصر .

4- تمركز النقد الأدبي حول الشكل والألفاظ دون المعاني، وذلك نظرا لما طبع الحياة العامة من جمال وترف وازدياد من المادة والاعتناء بالمظاهر في العمران والذات.

5- النزوع نحو جمالية الألفاظ في الغالب لم يكن السمة الفارقة التي جعلت من أدباء هذا العصر يستأثرون بهذه الخاصية، بل إنهم لم يوفقوا في أحيان كثيرة في تفصيل الجمل والعبارات التي اشتهروا بصنعتها على معان مكرورة مقلدة، الأمر الذي أحوج كثيرا منهم إلى الإيغال في التضمين والاقتباسات المفرطة، حتى رأينا قصائد تشرَّح أجزاؤها لتنظم كأشطر شعرية مبتذلة وترقع بأعجاز أبيات قديمة، وتسمى بذلك قصيدة، لكن هذا لا ينفي جمالية بعض

النماذج التي فاقت القصائد الأصول التي ضُمِّن منها، ونذكر على سبيل المثال الرائية التي وصف بها ابن الوردي النبي حيث قال عنها: <<وقلت في مدح النبي مضمنا أعجاز قصيدة أبي العلاء وبعض صدورها، ولقد فاقت بشرف ممدوحها أصلها، وكان النبي أحق بها وأهلها>>[28]،وكذلك يبرز عنصر الجمال المعنوي في الخيال الذي لا يخلو من المطابقة لما يودع الحبيبة ولا يخشى الفضيحة في قوله:

ودعتها ويـــدي اليمـين لأدمـــــعي ويدي اليســـارُلضمةٍ وعناقِ
قالت: ألا تخشى الفضيحةَ قلت: لا يومُ الوداع فضيحةُ العشاقِ[29]

6- تجلي روح السبق والتحدي للظفر بتحطيم الأرقام القياسية فالشعار السائد آنئذ هو قول أبي العلاء المعري:

و إني وإن كنت الأخيرزمانُه لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائل[30]

7- طلب الصعوبة وتكلفها لبزّ الأقران من الأدباء والبلغاء وتحقيق غاية الكثرة فيما قد تعجز عنه القلة المتمكنة، وبذلك تتحقق المرتبة الشعرية التي كان الشاعر ينشدها من وراء كلفه بالصناعة.[31]

8- الاستكثار من التضمين وذلك لإظهار المقدرة الثقافية والعلمية والأدبية، فالتضمين مؤشر على الاقتدار العلمي للشاعر، والتشعب المعرفي في كل واد، فابن الوردي لم يكتفبتضمين قصائده أشعار غيره من الشعراء؛ لأنه كان يرى بأن ذلك أمر مقدور

مخطط رقم(3): نماذج لبعض الشعراء والنظام الذين ضمن ابن الوردي أبياتهم في قصائده

على صنعته، فضمّن القصائد مضامين معرفية متعددة، كالنحو، والصرف، والمدح، فخلط في قصائده بين الشعر والنظم التعليمي، لذا فبعض قصائده تحتاج إلى إلمام معرفي ولغوي، لاستكناه المعنى المقصود، والمراد المنشود، خاصة لكونه يتقاطع في تضميناته مع كثير من الشعراء والناظمين السابقين كما هو موضح في المخطط(3)، وتجدر بنا الإشارة ههنا إلى أهمية عنصر الثقافة العامة في تفسير نصوص هذا العصر حيث لا يمكن لناقد فاقد أدوات الثقافة واللغة أن يستنطق نصا مبهما من نصوص الأدب المملوكي.[32]

9- التأثر الواضح في هذا العصر بالعلوم الدينية -خاصة تيار الزهد-وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. هذان المصدران كان لهما حضور كبير في قصائد شعراء العصر المملوكي سواء أكان الاقتباس بالمعنى أم باللفظ.

10- استدعاء السامع أو القارئ للمشاركة في صناعة المعنى، فهو ينقله من سلبية التلقي إلى إيجابية الإنتاج الإبداعي، ويحصل هذا بالاعتماد على ذكاء وفطنة المتلقي، أما المسلك العلمي إلى ذلك فهو الحذف والاكتفاء[33]، ومثال ذلك قوله:

فـــمن أتـــــى فمرحـــــبا ومـــــــن تـــــــولى فـــــإلـى[34]

وتمام المعنى فإلى جهنم وبئس المصير وما شاكل هذا المعنى.

11- الإسقاط الفني، وهو مصطلح نقترحه للمعارضات الشعرية في صورتها المميزة لعصر المماليك، فالشاعر -وبناء على الجمود والضحالة الإبداعية آنئذ- نجده يستقي من النماذج الأدبية السابقة، ويعيد صوغها بما يتفق مع طوابع العصر التي انتهت إلى الكلف والصناعة[35]، وعليه فالإسقاط الفني هو استدعاء للنماذج الأدبية السالفة في جانبها المعنوي وتفصيلها بمقاس العصر المملوكي الذي استدعته الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الفنية.

خاتمة

تعتبر هذه الدراسة قراءة في الدراسات العلمية والنقدية التي قدمها الأستاذ أحمد فوزي الهيب لميدان اللغة العربية وآدابها، وقد قصرنا الدراسة على أدب عصر المماليك الذي أخذ باهتمام الأستاذ نظرا لاضطلاعه بمهمة تحقيق أعظم ديوانين من دواوين هذا العصر، مما جعله يحيط بجملة واسعة من النماذج يحللها في مقالات، أو ينقد آراء في ثنايا كتبه، يسعى من خلالها -في مجملها-إلى إرساء فكرتين أساسيتين تتلخصان فيما يلي:

- إن الدراسات العلمية الموضوعية المتقنة لأدب عصر المماليك لابد لها من الآليات العلمية و اللغوية و النحوية، والبلاغية و الثقافية و كذا المنهجية التيتم استنتاجها من كتابات الأستاذ أحمد فوزي الهيب حول هذا العصر، وهي أدوات إذا ما توفرت لدارس فستمكنه من تلقي أدب هذا العصر وتحليله، واستنطاقه، وتأويله، والحكم عليه.

- لابد أن يكون رسوُّ الباحث-حسب الأستاذ أحمد فوزي الهيب-على حكم عام يخص أدب عصر المماليك نتاجَ دراسة بحثية وموضوعية وتحليل لنصوص هذا العصر بتماس مباشر وأهلية علمية ومنهجية، لا من أحكام غيره من الدارسين الناتجة أحيانا عن النظر في أسباب الضعف المشهود لها بالكثرة؛ مما أدى إلى غض النظر عن مواطن وبواعث الإبداع الشعري والفني في هذا العصر، وعليه فالواجب قبل الحكم أن تكون عناصر التحليل وأدواتُه من العلمية والمنهجية بمكان.

الإحالات

(1) القصيدة الرقطاء هي التي تحتوي كل كلماتها على حروف منقوطة

(2) ينظر: حداد جورج موسى، 2012، المدخل إلى دراسة الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان،ص.168، 171.

(3) الهيب أحمد فوزي، 2004، التصنع وروح العصر المملوكي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص.14.

(4) سلام محمد زعلول، الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية،ص.7.

(5) الهيب أحمد فوزي وآخرون، 1985، الأدب وروح العصر، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ص.5.

(6) عند الحديث عن منهج الأستاذ أحمد فوزي الهيب لابد أن نستصحب منهج اللغويين والنحويين في جمع اللغة، فهو انتهج منهجهم الاستقرائي في الجمع والاستيعاب، ثم تصنيف النظائر وتفريق العناصر المستقلة والمختلفة، غير أن الاستنباط عند علماء اللغة في دراساتهم اللغوية نتج عنه تصنيف المعجمات اللغوية بأنواعها واختلاف مناهجها، وكذا متعلقاتها التبعية من مسائل فقه اللغة وغيرها، أما عند النحويين، فقد تمخض عن دراساتهم النحوية استنتاجُ وضبطُ القواعد النحوية والصرفية، والإعرابية، وأما الأستاذ أحمد فوزي الهيب فقد نحا عن هذا بواسطة آليات علمية ومنهجية إلى استنتاج الخصائص الأدبية لعصر المماليك وأسباب نزوع الأدباء إلى التصنع، وبأسلوب غير مباشر يقدم للباحثين والدارسين أسس استجواب وتحليل نصوص هذا العصر -دون غيره- نظرا لما جمعه من متغيرات سياسية واجتماعية، وفكرية، وأدبية ذات أبعاد مختلفة..

(7) الفاخوري حنا، 1977، الجديد في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج4/ ص.327.

(8) الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 72، الجزء 1، ص.7.

(9) في هذا المعنى إشارة إلى الحكم العام الذي ذكرناه في المقاربة المنهجية التي استخلصناها من كتابات الأستاذ ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"ص.7.

(10) الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.45.

(11) ينظر: الصفدي صلاح الدين، 1299هـ، جنان الجناس في علم البديع، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، ط1، ص. 7.

(12) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.15.

(13) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، تحقيق: أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ط1، ص.494.

وابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1996، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، ج2/ ص.155.

(14) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.17.

(15) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، ص.395، 396.

(16) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، ص. 265.

(17) الصفدي صلاح الدين، 1299هـ، جنان الجناس في علم البديع، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، ط1، ص. 7.

(18) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، ص. 191.

(19)الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، 2002، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، ج2/ ص. 153.

(20)وذلك أن الناس قحطوا وأجدبت الأرض بدعوة رسول الله ρ، فسار حاجب إلى كسرى يستأذنه الاستظلال بريف أرضه، فأبى وطالب بالضمان، فأشار حاجب على كسرى برهن قوسه عنده، فاحتقرت الحاشية الأمر، وقبلها الملك لعظيم مكانة القوس عند مالكها، لا لقلتها في ملك كسرى، وسار قوس حاجب مثلا.

ينظر: ابن قتيبة عبد الله بن مسلم أبو محمد، 1981، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص. 608.

(21) ينظر: الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، 2005، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، ص. 72.

(22) الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.52.

(23) الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.61.

(24) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.64.

(25) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.8، 9، 10، وما بعدها.

(26)الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان،2013، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط 1، ج3/ ص.75.

(27) الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.9، 10.

(28) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، ص.301.

(29) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، ص.214.

(30) التبريزي الخطيب يحيى بن علي أبو زكريا وآخرون، 1945، شروح سقط الزند، تحقيق: طه حسين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، ج2/ ص.525.

السيوطي جلال الدين عبد الرحمن،2006، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: إبراهيم محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، ج1/ص.48.

السبكي تاج الدين بن علي بن عبد الكافي،1413هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: الطناحي محمود محمد، وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ج6/ ص.81.

(31) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.28.

(32) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.36.

(33) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، ص.42.

(34) ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، ص.311.

(35) ينظر: الهيب أحمد فوزي، 2004، التصنع وروح العصر المملوكي، ص.7، 8.

المراجع

ـ ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1986، ديوان ابن الوردي، تحقيق: أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ط1.

- ابن الوردي عمر بن المظفر زين الدين، 1996، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم أبو محمد، 1981، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط4.
- التبريزي الخطيب يحيى بن علي أبو زكريا وآخرون، 1945، شروح سقط الزند، تحقيق: طه حسين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3.
- الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان،2013، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط 1.
- حداد جورج موسى، 2012، المدخل إلى دراسة الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان،
- الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، 2002، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15.
- السبكي تاج الدين بن علي بن عبد الكافي،1413هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: الطناحي محمود محمد، وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2.
- سلام محمد زعلول، الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن،2006، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: إبراهيم محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ط1.
- الصفدي صلاح الدين، 1299هـ، جنان الجناس في علم البديع، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، ط1.
- الفاخوري حنا، 1977، الجديد في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، 2005، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8.
- الهيب أحمد فوزي وآخرون، 1985، الأدب وروح العصر، منشورات ذات السلاسل، الكويت.
- الهيب أحمد فوزي، 1997، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي "عمر بن المظفر"، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 72.
- الهيب أحمد فوزي، 2004، التصنع وروح العصر المملوكي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.